يبحث عن امور حياتية، لم تتوفر له بسهولة بادىء الأمر. اما العودة الى الوطن فقد كانت الحلم الكامن في النفس، في اغوارها البعيدة. وهذا، انما يفسر مرور ما لا يقل عن خمس عشرة سنة، دون ان تشهد الساحة الفلسطينية اية حركة ملموسة للخروج من هذا الخزان ــ الموت.

وهذه المرحلة، مرحلة الضياع والوهم، كان لابد ان تنعكس حيثياتها القاسية على حركة الشخوص ومواقفهم، وتحدد، بالتالي، اتجاه الحدث ومستواه عندهم. فكيف سيتعامل غسان كنفاني ــ عبر ابطاله ــ فنياً، مع هذه المرحلة؟. وبصيغة اخرى: ما نوع الشخوص الذين سوف تنتجهم هذه المرحلة؟ ما فهمهم للواقع، وما موقفهم من مجمل العلاقات القائمة التي تؤثر في طبيعة سلوكهم الانساني؟. والاجابة على هذا السؤال، سوف تقودنا الى صدق غسان الذي ادرك، وهو يتعامل فنياً مع المرحلة، ان آفاق شخوصها لا يمكن ان تتسع اكثر من المدى الذي تدور فيه وحوله جماهير المرحلة، التي كانت سمتها ــ كما عرفنا ــ العجز الموضوعي، والاستغراق في البحث الذاتي، عن الحلول الفردية التي حجبت اية رؤى جماعية، ذات مضمون تجاوزي.

ان شخوص هذه المرحلة هم ضحايا الواقع، السياسي والاجتماعي. فقد كان نقل الواقع وضغوطاته المتنوعة، اكبر من امكانياتهم الذاتية وحدود تفكيرهم وايدولوجيتهم. لم يستوعبوا متطلبات المرحلة؛ لذلك كان الموت المجاني مصيرهم في اغلب الاوقات، لانهم اغرقوا في الرضوخ للواقع وامعنوا في الهرب والبحث عن الحلول الفردية، التي ما كان بوسعها ان تتجاوز هذا الواقع وتنتصر عليه. هربوا بعيداً، عن الموت الذي كان يترصدهم في جنبات المخيم، باشكال متنوعة، ليجدوا الموت في انتظارهم، بشكل لم تعرفه المآسي اليونانية؛ في صحراء مقفرة، لا ظل فيها ولا ماء، ولا صديق في القرب يترحم عليهم. ولكن دليلاً رأوا فيه الامن والطريق الى الجنة الموعودة، فاذا هو فاقد للرجولة والمبدأ، لم ينسه موتهم المأساوي، ان يستولي على ما في جيوبهم وعلى معاصمهم.

لقد وجدت هذه المرحلة، تعبيرها الفني، في رواية غسان الأولى «رجال في الشمس» التي صدرت عن دار الطليعة في بيروت عام ١٩٦٣. من هو بطل هذه الرواية؟ هل هو ابو قيس؟ ام سعد؟ ام مروان؟ ام ابو الخيزران؟. ان البناء الملحمي للرواية، اعطى الاهمية نفسها للاصوات الاربعة في الرواية، رغم عدم تخصيصه صوتاً منفرداً لـ (أبو الخيزران)، اذ جاءت افكاره وتحركاته وتوجهاته، مبثوثة في ثنايا الاصوات الاخرى، لذلك فإنه من الاجحاف بحق الشخصيات الاخرى، ان نحدد واحدة منها، على ان لها البطولة الروائية. كما ان هذا التحديد يُقزم العمل الروائي، الذي اراد له الكاتب ان يعبر عن «حالة»، من خلال سلوك مجموع الشخصيات التي تتحرك، واقعياً وروائياً، بانسجام مع حيثيات المرحلة واطروحاتها الفكرية. وهكذا فإن البطل في الرواية، هو الانسان الفلسطيني ــ الضحية، الانسان ــ المنفي، وتقدم الشخوص الاربعة مجتمعة، الصورة العامة لهذا الانسان، الذي هو شخص ــ بطل الرواية، والمرحلة التاريخية.

ان سمات هذا الشخص وملامحه، التي يمكن تجميعها من الشخصيات الاربعة،